ميثاق الحب

ميساء عبدالكريم أحمد يوسف ـ السودان

يبدو تمامًا مثل كمانٍ أنيق هادئ ،يضُجُ فخامة ويتحفّظ على ما بداخله من ألحانٍ رقيقه.

يوم أطلت من على شُرفتها مُمسكة بكوب قهوه ،بوجه طُفولي مُستدير ينُم عن براءة بعينين بُنيتين ساحرتين، بعثرت ثباتهُ ، ظل عالقٌ في وجنتها اليتيمة تلك وحُبس في عينيها منذُ أن رءاها أول مرة وهو مُنفصِم الحواس شارد الأفكار كأنها ألقت عليه تعويذة فهامَ بها عشقًا.

أخبرتهُ في أول حديث دار بينهُما أنها امرأةٌ هزمت اليأس كثيرًا وحاربت كل المعوقاتِ التي اعترضتها ، إلا أنها لا تُؤمن بنجاحها هذه المرة؛ لم يُخبرها أنه علق بشباكِ قلبها التي نسجتها دون درايةٍ منها، عشِق كل تفاصيلها ،غاص في عينيها بينما كانت تتحدث إليه برقة ولهفة كطفلة مُدللة ؛ لم يخبرها أن تلعثُمها في الكلام يسلبه عافيته وأن البراءة التي تُغلف خلايا وجهها تلك وحدها جعلتهُ يتسوَّل في معالمها التي تَتسمُ بالجمال الفائق ، أصبحت أنيسته في كُل ليلة ؛ ترافقُه في خيالاته المَرِحة يغرقُ في تفاصيلها بعيدًا عن ضجيجِ العالم ،يختبئ في كنف أفكاره التي لا تعرفُ سبيلًا سواها !.

يُغمضُ عينيه فيراها ،بهندمتِها ،ودِفِيء ملامحها ؛ امتلأ بها حد اللا وصف واللا خلاص .

توغّلت داخله ، فأخذت تنسابُ ببطءٍ ،وتتبختر في مُهجته .

في كُل لقاء بينهُما ،كانت تتقدم نحو خافقهُ ،ذكيةٌ هي ،أصابت الهدف باحترافية ، وتمكنّت منه حتى أنهُ أصبحَ يخشى عليها منه ، يخشى أن يُخرج بعضٌ منها مع زفرة مُتمردة ؛يوم أسمعها مقطوعة تُشبِه هُدوءها ، وكيف بكت من فرط الانتشاء !.

شفيفةٌ تعشقُ صوت الكمان فتُسافر رفقة رقةِ ألحانِه ،لعالم يحمل اسمها ويتسعُ فقط لها ويُشع جمالًا ؛حقًا يُشبهها الكمان ،أنيقٌ كعينيها ؛حين أخبرتهُ أنه غامضٌ وعيناهُ تُخفيان شيئًا ،تمنى فقط لو أنها تُجيد قراءة ما يُخفيه داخلهُ لكانت علِمت أنها استولت عليه، لو أنها تُحدِقُ قليلًا بعينيه ،أو تصمُت لبعض الوقت فتُفسحُ المجال لقلبهُ ليبوح بما يكنّه !.

لو أنها تعلم أن لقاءاتهُم المليئة بالغموض ؛من كليهما تزيدهُ جنون ، تُحرقهُ بقدر ما تُسعده وأن امرأة مثلها ،شاذة الأفكار تُثير هُدوئهُ ؛ حديثُها بالنسبة إليه عبارة عن طلاسم مُعقدةٌ لا يجرأُ حتى بالتفكير في فكها فهي امرأة أبعدُ من حدود الفهم.

كأحلام الفجر المُزدحمة بالسعادة ، كرائحة أزهار الياسمين ، تُشبهُ حُلم مرجوٍ لشخصٍ يحلُم بالوصول ؛ تُشبهُ فرحة احتضان أُم لمولوُدها الذي طال انتظاره ،

كشعُور الامتلاء !.

كالطيف تأتي لوهلة فتملأُ المكان أريجًا ؛تختفي لتختفي معها ابتسامته ، اختفت كعادتها ولم يكُن اختفاء معهود ، أخذ يُفكر فيها يحاول إسترجاع أي شيء يخُصها ؛ وكأن القدر يُبارزهُ ويُراهن قلبهُ على استحالة الحصول عليها.

الغرابة تفرضُ نفسها بينهما ،لا يُشبهان بعضهُما هو رجل يغلبُ عليه عقله ، إلا في حضرتها يُصبحُ ناقص عقل ، لم يتوقع أن يُحب امرأة شديدة الغُموض ، تُلمح وتختفي كالطيف ، وفوق ذلك لا يعلم عنها أي شيء ، ولا حتى اسمها .

وهي التي ما أن تنطقُ اسمه يتزعزع ثباتُه ويتراقص قلبه فرحًا أيُعقل ؟!

طال الغياب وإعتاد على الذهاب والجلوس في مكانهُا المُعتاد ، ذاك المِقعد الخشبي المُطِل على النيل تحُفهُ شجيرات الياسمين ، المِقعد الذي شهِد كل جلسات السُهاد

يجلس حائِرًا عليه ، يُحدثها بصمتٍ أن عودي إليّ ، ليتها تسمع نداءاتهُ وصرخات قلبهُ المُستنجدة بها ، أضاف ذهابه لذاك المِقعد لقائمة أولويات يومُه ، بأمل أن يجدها ولكن دون جدوى .

أصابه الإحباط واليأس ، وإنصاع لرغبة الاستسلام المُختبئة خلف مُحاولاتُه المُلِحة ، تسللت دموعٌ من عينيه عُنوة فكانت أول مرةٍ يبكي فيها ، بكى بِكل ما أُوتيّ من يأسٍ ؛ يذكُر طلتها تلك في جمالها البِكر ، لم يكُن في حضرةَ الوعي إلا عندما علا

صوت هاتفه المحمول ليُخرجهُ من حيرتهِ تلك مُعلنًا اتصالا من مجهول ؛ نظر بدهشة إليه قبل أن يرُد ، رفع سماعة الهاتف إلى أذنه وما أن أتاهُ صوتها تجمدّت أوصالهُ ؛ أتاهُ صوتها باهتٌ خالي من رناتهُ الموسيقية المألوفة ؛ سألتهُ أعرفتني ؟!

أجاب وكيف لا أعرفكِ ، وقد ازدحمت ذاكرتي بكِ وحدكِ أراد أن يُعاتبها ويُوبخها على الغياب ، لكنها لم تمهلهُ أخبرتهُ سريعًا أنها مريضة ؛ ومحتجزة في المستشفى ، طلبت منهُ أن يأتي لرؤيتها ؛ فأسرع إليها مُتلهفًا يعتصر الألم قلبهُ من الخوف والقلق عليها .

أصابهُ الهلع لرؤُيتها في تلك الحالة ؛مُستلقية على سرير تتدلى من أعلاهُ عُدة أنبولات من المحاليل الوريدية التي تُغذي ضُعفها ؛ شحِبت بشرتها واسودت ؛بدت مُنطفئة ، الملامح ، فور رؤيته قاومت حتى أخذت وضع الجُلوس ، لاح شبح ابتسامة خفيفة على شفتيها ، ظل واقفًا هلِع لا يُصدق ما تراهُ عينيه ؛ فاغرًا فاه من الصدمة .

طلبت منه الجلوس لتروي له ، جلس فبدأت بالتحدُث أخبرتهُ بعلمها أنه إشراقها وبحث عنها مُطولًا ، اعتذرت لذلك ثم أخبرته أنه مُصابةٌ باللعين الذي يُدعى سرطان ، وأنه اقتحم قُولونها وعلى وشك الانتصار ، لم يعد لديها أمل للنجاة حلّها الوحيد الموت .

صُعِق لسماعهُ كلماتها الممتلئة بالألم ، لم تطاوعهُ الكلمات هذه المرة فلم يتفوه بكلمة ، أحس بلمستها الدافئة الناعمة على يدهُ ، تربتُ ببطء ؛ في حين أراد لدموعه ، الانهمار .

أُخبرته أنها أرادت إخباره ، أرادت أن يزورها كُل يوم حتى تُفارق الحياة ، امتعض لسماعهُ كلمة الموت تلك ، أخبرها أنه لن يصمُد إن أصابها أذىً ، ولن يدعها تفلتُ من بين يديه ، هم بالمغادرة فاستوقفته قائلة : بالمناسبة إسمي ورده ؛ لاحت إبتسامة حسرة على شفتيه ؛ ورده هكذا نطق اسمها مُستلذٌ به ؛خرج واعدًا بعودتِه سريعًا !.

أخذ يُفكر طوال الطريق ؛ استبعد فكرة خُسرانها لا سيما وقد حُظيّ باسمها اليوم فقط (وردة) ظل يُردد اسمها في حيرة ، أيحقُ له أن يضحك أم يبكي ؟!.

هزم الحُزن وحسم أمرهُ ، عاهد نفسه على استحالة إفلاتها

أصبح ملاذها ومُتكأها وحِصنها المنيع الذي لا تُبالي بالبوحِ له .

طوال فترة العلاج ؛ يُهمهم بالدُعاء ليلًا وهي نائمة ، يترجى المولى أن يُبقيها بجانبهُ .

يُمسك بيدها قبل جلسات العلاج ويتلو ما تيسر على رأسها ؛ فهي لا تملُك أحدًا سواه ، طوال فترة الحِمم البُركانية التي غزت جسدها ؛ قررت أن تتقوى وتُقاوم لأجل الحُب المُنبعث من عينيه .

أما هو فقد حسم أمره ؛ إما حياة بها عينيها أو موت مُحتم لكليهما .

فلا معنى لحياة تخلو منها !.

بدأ شعرها بالتساقُط وضمرت قامتها ؛ أخبرها أن المرض لم يسلبها جمالها وأنها مازالت ؛ تُشِع جمال ، كملاكٍ صغير رُغم ألمها وضُعفها الشديدين إلا أنها لم تنسى يومًا أن تُهديه إبتسامة عريضة تُعبر عن امتنانها ؛ وبالمقابل لم يبخل هو بمواساته ؛ تعهد بأن يُمسك بيدها ليعبران معًا لمنارة جديدة ؛تسعهُما الإثنين فقط .

في كُل ليلة يقُص عليها قصة ، يُسمعها من ألحان الكمان مقطوعاتٌ تُشبه عينيها ، اهتم بها كما الطفلة ، حتى تناست ذاك المرض ؛ فبوجودهُ يبتعد الألم بعيدًا يرقُبها بعينين مأساويتين .

يوم أكملت الجلسات العلاجية ، وهما بانتظار النتيجة النهائية التي تُقرر مصيرهما معًا ، امتلأ المكان توترًا وقلقًا وترقُب ؛ ذهابًا ومجيئًا ، دعاءً وصلاة .

لم يكُن بوسعهُ سوى احتضانها ، احتضنها وكأنها من نفس الجسد ، أخذ يربتُ على كتفها ويُزيل من عاتقها كل الخوف العالق ، يُخبرها أن كُل شيء سيكون كما ينبغي له أن يكون !.

فاطمأنت واستجم كُل عضوٌ منها في ثبات ، إلى أن رمقَت ورقة بيضاء ؛ فعاودها القلق والتوجُس ، فلم تعهد من ذاك الورق سوى أخبارٍ تحمل بين خباياها نُواح ؛ خانها حدسها أبت رغبتها بالبقاء إلا أن تُطاوع الحُب وتلبي أمره .!

أخبرهم الطبيب أنها تعافت بالكامل ، وقعت كلماته على مسمعهُما كموسيقى ورنين ؛ تراقصت قلوبهما قبل الأجساد ؛ اندفعت دُموعٌ حبسها الأسى حاملةً انتشاء وراحت الأعين تحكي لبعضها بنظراتٍ سعادة !.

وكأن الكون بأكمله يُشاركهُما الفرحة ؛ ليُكمل الفرحة ألبسها خاتم أعلن به انتماءها إليه ، فُرضت هي له واحتل كل حواسها ذاك الخاتم .

لم يعتاد الحُزن على مخالفي المُحبين ؛ هزموا المرض سوياً عبروا لدُنياهُم التي لطالما حِلموا بها !.

تآمرت السعادة والاستجابة ليجتمعوا ؛ طويا معًا صفحة مليئة بالمُناقصات الخاسرة ؛ في اليوم المرجُو تزينّت الوردة كما الوردة بأبيضٍ أرجح خافقهُ كما فعلت أول مرة انقضى الأمر وتم إيفاء ميثاق حُب !.